

وبعد ذلك بعشر سنوات أعاد الأستاذ إبراهيم الإيبارى نشر نفس النص ،  
وعلى نفس مخطوطة الإسكريال ( رقم ٣٥٦ ) وقدم له بمقدمة طيبة تتضمن  
بمختار عن حياة ابن الأبار وأعماله ودراسة لذلك « المقتضب » ، وكلاهما عمل  
طيب مشكور .

وفي سنة ١٩٥٩ تقدم السيد أنيس عبد الله الطباع ببحث له عن ابن الأبار  
للحصول على الدكتوراه من جامعة مدريد ، وأجيز عليه ، ثم طبع ترجمة عربية  
للبحث بعد ذلك في بيروت .

وأخيراً ، في سنة ١٩٦١ ، قام الدكتور صالح الأشر بنشر « إعتاب  
الكتاب » لابن الأبار ومهد له ببحث مستفيض عن حياة ابن الأبار وعصره  
ومؤلفاته وكتاب إعتاب الكتاب .

فهؤلاء تسعة عشر رجلاً من أهل العلم من المحدثين في الشرق والغرب  
عرفوا قدر ابن الأبار وقاموا على خدمة نصوصه وصرفوا من الجهد ما تيسر  
لهم في التعريف به وبأعماله وخصائصه وميزاته ، وكلهم أجمعوا على ما قرره  
دوزى من أنه يعتبر بحق من أكبر من أنجب الأندلس من أهل العلم ومن  
أولاهم بالثقة والتقدير .

ولم يصب هذا الحظ من أعلام الأندلس إلا القلائل ، بل كان حظ ابن  
الأبار من التقدير أكبر من حظوظ مؤرخين يزيدون عنه أهمية مثل أحمد بن  
محمد الرازى وابن حبان وابن بسام ، فإن واحداً من هؤلاء لم يظفر من  
الباحثين بكتاب خاص عنه في حين ظفر ابن الإبار بكتابين : وتلك عناية من  
القدر بهذا الرجل الذى يشعر الإنسان وهو يقرأ تاريخ حياته أنه لم يعرف قدر  
نفسه كما عرفه الآخرون .

\* \* \*

## حياة ابن الأبار :

وقد قص معظم هؤلاء حياة ابن الأبار في تطويل أو في اختصار ،  
وتتشابه هذه التراجم في محتواها ، لأن المراجع التى تعتمد عليها في الترجمة له

متشابهة في مادتها لا يضيف واحد منها شيئاً جديداً ، وهي لا تخرج عما أتينا به في الفقرة الخاصة به من «تاريخ الفكر الأندلسي» (ف ٨٦ ص ٢٧٧ - ٢٨٠) ، ويبدو من هذه التراجم أن حياة ابن الأبار واضحة خالية من المعضلات ، وربما كان هذا صحيحاً عن نصف حياته الثاني ، أي منذ وصوله إلى تونس إلى مصره ، ولكن النصف الأول من حياته في حاجة إلى دراسة ، وخاصة ما يتعلق منه بمأساة بلنسية ونصيب ابن الأبار في الأحداث التي انتهت بتسليمها .

ونبدأ من البداية ، فنجد الغبريني يقول إن أصله من أجردة ، وفي نسخة أجره ، ولا نجد قرية أو موضعاً في إقليم بلنسية بهذا الاسم ، ولكن محمد بن شنب ناشر «عنوان الدرابة» يقول في تعليق له : في نسختين «أجره» والصواب «تُورِيّة» ، ولاندرى علام استند في هذا التصويب ، لأن تورية أو التوريا هو الاسم اللاتيني والإسباني لنهر بلنسية الذي يسميه العرب بالنهر الأبيض ، ويسمى في بعض النصوص الإسبانية بهذا الاسم العربي Guadalaviar ، وليست هناك قرية باسم تورية في ناحية بلنسية . ويضيف الغبريني عن أجردة هذه : «وهي وما والاها دار القضاعيين في الأندلس» ، ولم نجد ما يؤيد هذا في «جمهرة الأنساب» لابن حزم : وصحة الاسم أندة ، فقد ذكر ابن الأبار في ترجمته لأبيه ( التكملة رقم ١٤٤١ ) أنه «من أهل أندة وسكن بلنسية» . وأندة Onda اليوم مدينة صغيرة في مديرية قسطليون Castellón de la Plana ، وتقع على ٢٠ كيلومتراً غربى قسطليون قاعدة المديرية ، وكانت أندة على أيام المسلمين تابعة لكورة بلنسية :

وترجمة ابن الأبار لأبيه تلقى ضوءاً على أصله وحياته الأولى ، فقد كان أبوه عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعى من أهل العلم والدين ، درس على أجلاء أهل العلم في عصره وأجاز له الكثيرون منهم رواية كتبهم ورواياتهم ، قال ابن الأبار : « وكتب إليه القاضي أبو بكر بن أبي جرة يميز له ولى معه جميع روايته مرتين ،

إحداهما في غرة رجب سنة ٥٩٧ ، والثانية في منتصف ذى القعدة من العام المذكور ، وأنا إذ ذاك ابن عامين . وأشهر مولدى عند صلاة الغداة من يوم الجمعة في أحد شهرى ربيع سنة ٥٩٥ . وهذا أدق تحديد وجدناه لتاريخ ميلاد ابن الأبار مع ما في العبارة من تضارب ، فهو يقول أولاً أنه كان في منتصف ذى قعدة سنة ٥٩٧ ابن سنتين ، أى أنه ولد في ذى قعدة سنة ٥٩٥ ، ثم يقول إنه ولد في أحد شهرى ربيع من نفس السنة ، فإذا كان قد ولد في ربيع الأول منها فإن هذا الشهر يقابل ديسمبر ١١٩٨ ، وإذا كان قد ولد في ربيع الثانى فهو من مواليد يناير سنة ١١٩٩ .

ثم يقول ابن الأبار عن أبيه : « وكان رحمه الله - ولا أزكيه - مقبلاً على ما يعنيه ، شديد الانقباض بعيداً عن التصنع ، حريصاً على التخلص مقدماً في حمله القرآن ، كثير التلاوة له والتهجده به ، صاحب ورد لا يكاد يهمله ، ذاكراً للقراءات ، مشاركاً في حفظ المسائل ، آخذاً فيما يستحسن من الأدب ، معدلاً عند الحكام ، وكان القاضى أبو الحسن بن واجب يستخلفه على الصلاة بمسجد السيدة من داخل بلنسية . قرأت عليه القرآن بقراءة نافع مراراً ، وسمعت منه أخباراً وأشعاراً ، واستظهرت عليه مراراً أيام أخذى على الشيوخ ، يمتحن بذلك حفظى ، وناولنى جميع كتبه ، وشاركته فى أكثر من روى عنه . وسمعته يقول : حضرت شيخنا أبا عبد الله ابن نوح ، وقد زاره بعض معارفه ، فسأله عن أحواله ، وبالغ فى سؤاله ، فجعل يحمد الله ويردد ذلك عليه ، ثم أنشد متمثلاً :

جرت عادة الناس أن يسألوا عن الحال فى كل خير وشر  
فكلُّ يقول بخير أنا وعند الحقيقة ضد الخبر

... حدثنى أبى رحمه الله غير مرة أنه ولد بأنده سنة ٥٧١ (١١٧٥) -

(١١٧٦) ، وتوفى ببلنسية وأنا حينئذ بثر بطليوس عند الظهر من يوم الثلاثاء الخامس لشهر ربيع الأول سنة ٦١٩ (٢١ مارس ١٢٢٢) ، ودفن لصلاة العصر من يوم الأربعاء بعده بمقبرة باب بيطالة وهو ابن ثمان وأربعين

سنة ، وحضر غسله أبو الحسن بن واجب وجماعة معه ، وكانت جنازته مشهودة والثناء عليه جميلا ، نفعه الله بذلك .

وإذن فقد نشأ ابن الأبار في بيت علم ودين وعفاف ، ولكنه لم يكن من بيت رياسة وولاية ؛ ولو أن ابن الأبار سار على نهج أبيه في الانصراف إلى العلم والانقطاع له لانتفع بحياته بأكثر مما قدر له ، ولكنه انصرف وهو في مطالع شبابه إلى السياسة وطلب الوظائف والجاه في ظروف ضيقة عسيرة على الحاكمين والمحكومين معاً ، فأصابه من ذلك بلاء شديد .

وقد أحصى الدكتور عبد العزيز عبد المجيد شيوخ ابن الأبار وترجم لكل منهم ، ولهذا فسكتني بالقول بأنه أخذ القرآن والقراءات عن أبيه ، وأخذ الفقه والحديث والمسائل وعقد الشروط عن أبي عبد الله محمد بن أيوب بن نوح السرقسطي ( ٥٣٠ - ٦٠٨ / ١١٣٥ - ١٢١٢ ) ، وعن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي زاهر ( توفي في رجب ٦٣٤ / ١٢٣٧ ) ، وأخذ الحديث أيضاً عن أبي الخطاب أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب القيسي ( ٥٣٧ - ٦١٤ / ١١٤٢ - ١٢١٧ ) وعلى هذا الشيخ أخذ « الأخبار » أي درس التاريخ ، وهو العلم الذي بلغ ابن الأبار فيه شأوه ، ولا ابن الأبار شيخ آخر في التاريخ هو أبو سليمان داوود بن سليمان .. بن حوط الله الأنصاري ( ٥٥٢ - ٦٢١ / ١١٥٧ - ١٢٢٤ ) ، فقد كان ابن حوط الله من المعنيين بالأخبار وممن كتبوا فهرسة لشيخهم ؛ وأخذ النحو والأدب عن محمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري ( ٥٦٣ - ٦١٠ / ١١٦٧ - ١٢١٣ ) وعن أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن مسلم البكري ( توفي سنة ٦٢٨ / ١٢٣٠ ) وأبي عامر نذير بن وهب بن لب بن عبد الملك بن نذير القهري ( ٥٥٨ - ٦٣٦ / ١١٦٢ - ١٢٣٨ ) ، وأبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مطروح القيسي ( ٥٧٤ - ٦٣٥ / ١١٧٨ - ١٢٣٧ ) ، وقد أورد ابن الأبار في ترجمته لابن مطروح هذا خبرين لها أهمية بالنسبة لحياة ابن الأبار نفسه ، ولتاريخ

بلنسية في أيامه أيضاً ، وذلك أنه ولي قضاء دانية في آخر عمره ، ثم عزل عنه وتولاه بعده ابن الأبار سنة ٦٣٣ / ١٢٣٥ - ١٢٣٦ ، ثم استعفى ابن الأبار من قضاء دانية ، فعاد إليه ابن مطروح لفترة قصيرة إذ أنه توفي سنة ٦٣٥ / ١٢٣٧ - ١٢٣٨ « والروم محاصرون بلنسية » .

غير أن أكبر أساتذة ابن الأبار وأبعدهم أثراً في حياته هو أبو الربيع سليمان ابن موسى بن سالم بن حسان الحميدى الكلاعى ( ٥٦٥ - ٦٢٤ / ١١٦٩ - ١٢٢٧ ) ، فقد كان أبو الربيع كبير علماء بلنسية في عصره ، ولإليك سيرته كما رواها ابن الأبار في « التكملة » لتستبين النواحي التي أعجبت ابن الأبار في شيخه هذا واجتهد في الأخذ بها ، قال بعد ذكره شيوخه : « ...وعنى أتم عناية بالتحديد والرواية ، وكان إماماً في صناعة الحديث بصيراً به ، حافظاً حافلاً عارفاً بالجرح والتعديل ، ذا كراً للمواليد والوفيات ، يتقدم أهل زمانه في ذلك وفي حفظ أسماء الرجال ، خصوصاً من تأخر زمانه وعصره . وكتب الكثير ، وكان حسن الخط لا نظير له في الإتقان والضبط مع الاستبحار في الأدب والاشتهار في البلاغة ، فرداً في إنشاء الرسائل ، مجيداً في النظم ، خطيباً فصيحاً مفوهاً مدركاً حسن السرد والمساق لما يقوله مع الشارة الأنيقة والزى الحسن . وهو كان المتكلم عن الملوك في مجالسهم والمبين عنهم لما يريدون على المنبر في المحافل . ولي خطابة بلنسية في أوقات . وله تصانيف قصيرة في فنون ، وله كتاب « الاكتفاء مما تضمنه من مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء » في أربعة مجلدات ، وكتاب حافل في معرفة الصحابة والتابعين لم يكمله ، وكتاب في أخبار البخارى وترجمته ، وكتاب « الأربعين » وتصانيف سوى ذلك كثيرة في الحديث والأدب والخطب ، وإليه كانت الرحلة في عصره للأخذ عنه . أخذتُ عنه كثيراً ، وانتفعت به في الحديث كل الانتفاع ، وحضنى على هذا التاريخ ( أى كتاب التكملة ) وأمدنى من تقييداته وطُرفه بما شحنته به . مولده في رمضان سنة ٥٦٥ ، واستشهد بكائنة أنيشة على ثلاثة فراسخ من بلنسية ،

وكان أبدأً يحدثنا أن السبعين منتهى عمره لروياً رأها ، وهو آخر الحفاظ  
والبغاء المترسلين بالأندلس . قلتُ : أكثرُ هذا عن ابن مسدى ، وقال : لم  
ألق مثله ، كان مبرزاً في فنون » ( ترجمة رقم ١٩٩١ ، التكملة ٧٠٨ / ٢ -  
٧٠٩ ) .

وأبو الربيع سليمان هذا نموذج لطراز من أهل العلم في الأندلس تستطيع أن  
تسميهم « شيوخ » العصر أى الذين انتهت إليهم الصدارة في علوم الدين والفقه  
والفتيا في أيامهم ، ويصدق على كل منهم ما قاله ابن الأبار عن أبى بكر محمد بن  
عبد الله بن الجدد : « ... وكان في وقته فقيه الأندلس وحافظ المغرب لمذهب  
مالك غير مدافع ولا منازع ، لا يجاريه أحد في ذلك ولا يدانيه » ( التكملة  
رقم ٨٢٥ ج ١ ص ٢٥٩ ) . والخصائص الرئيسية لأولئك الشيوخ غزارة  
العلم وصدق الإيمان ، وشرف البيت واتصال الرياسة فيه ، وفصاحة اللسان  
والقدرة على الكتابة والخطابة في بلاغة ، ثم الاهتمام بشؤون الجماعة الإسلامية  
والأخذ من السياسة بنصيب ، مع التزام الحق والسمت والعفاف .

وفي عصور الأندلس الأولى ، أيام الإمارة والخلافة ، كان أولئك  
الشيوخ عمداً من عمد السلطان ، كما نرى في حالات عبد الملك بن حبيب  
ويحيى بن يحيى الليثي وأصبيغ بن خليل . أما بعد زوال الخلافة  
وانتساب الفتنة وتلاشى السلطان السياسى العام فقد أصبح أولئك الشيوخ  
رموزاً على السلطان الوحيد الباقى وهو سلطان الدين والعلم ، وصاروا رموزاً  
على قوة الدين وسيادته ومعقد الآمال في بعث الدولة وعودة هبة الإسلام  
في شبه الجزيرة ، فهم عمد الدين وجماعته ، وهم في واقع الأمر زعماء الجماعة  
الإسلامية الأندلسية وقادتها الحقيقيون . وكلما زاد السلطان السياسى تدخله  
ازداد أولئك الشيوخ جلالاً وزاد شعورهم بمسؤولياتهم ، فلم يعودوا مجرد  
فقهاء بل زعماء أيضاً يتحلون بما تتطلبه الزعامة السليمة من صدق وإخلاص  
وجرأة واستعداد لبذل النفس في سبيل الجماعة الإسلامية ، مع الحرص على  
العلم وهو عماد سلطانهم الأول .

وقد يتقارب اثنان أو ثلاثة من الفقهاء في صفاتهم ، ولكننا نجد في الغالب تسليماً لواحد بالرياسة والتقدم . ففي أيام أبي علي الحسين بن سكرة الصدي ( ٤٥٤-٥١٤/١٠٦٢-١١٢١ ) عاش أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجدل ( ٤٥٠-٥٢٠/١٠٥٨-١١٢٦ ) ولكن الزعامة كانت لأبي علي بن سكرة الصدي ، وقد دفع ثمنها باستشهاده في معركة كُتُنْدَة . وقد عاصرها أبو بكر بن العربي ، وكان من أجل العلماء وأوفرهم هبة ، ولكنه فر من معركة كُتُنْدَة ثم أقحم نفسه في السياسة ، ولم يستطع لهذا أن يرث مكان الصدي وإنما ورثه القاضي عياض بن موسى بن عياض ( ٤٧٦-٥٤٤/١٠٨٣-١١٤٩ ، ٥٠ ) ، وقد ثبتت زعامته عند تصديه للموحدين وصموده للحق ونفيه إلى المغرب . ثم كان شيخ الجليل الثاني أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن الجدل ( ٤٩٦-٥٨٦/١١٠٢-١١٩٠ ) وكان رجل الأندلس وشيخه غير مدافع على أيام أبي يعقوب يوسف وابنه أبي يوسف يعقوب المنصور ؛ ثم انتقلت المشيخة إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد الحفيد ( ٥٢٠-٥٩٥ / ١١٢٦-١١٩٩ ) وكان بينه وبين الموحدين من الخلاف ما أدى إلى الإساءة إليه ونفيه ثم عودته ؛ ثم كان الشيخ بعد ذلك أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي ( ٥٦٥-٦٣٤/١١٦٩-١٢٣٧ ) شيخ ابن الأبار ، وقد استشهد مجاهداً في سبيل الإسلام في معركة أنيشة .

ونصل إلى أيام ابن الأبار ، فنجد سائراً في طريق أولئك الشيوخ ناظراً إلى سيرهم آخذاً بالأصول التي ساروا عليها ، ولكن الظروف في الأندلس كانت قد تغيرت مع الأيام تغيراً حاسماً جعل استمرار هذا الخط الجليل مستحيلاً ، فإن الجماعة الإسلامية نفسها - التي بقيت متمسكة رغم كل شيء حتى النصف الثاني من القرن السادس الهجري / العقد الثالث من القرن الثالث عشر الميلادي - أصيبت بكوارث كبرى حلت عقدها وضعفت كيانها السياسي والاجتماعي ولم يتأسك ما بقي منها في منطقة غرناطة إلا بعد فترة طويلة من الفوضى والكوارث المتوالية .

ذلك أن الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية حول مصير الأندلس تحدد مصيره بصورة حاسمة في نهاية العقد الأول من القرن السابع الهجري إثر معركة العقاب ( ١٥ صفر ٦٠٩ / ١٧ يوليو ١٢١٢ ) بعد قرابة القرنين من صراع ضارٍ أنفق الجانيان الإسلامي والنصراني فيه أقصى ما استطاعا من الجهد في سبيل أراضٍ عظيمة وبلاد كبرى أراد القدر أن تحرم ممن ينهض من أهلها لجمع أمرها والدفاع عنها . وقد كان هذا الصراع سجالاتاً بين مد وجزر طالما وقف المرابطون في الميدان ، ثم مال الميزان وشالت كفة الإسلام بعد زوال أمر هذه العصبة من المجاهدين أولى القوى وحلول الموحدين محلهم .

وقد بذل الموحدون ما استطاعوا ولكنهم كانوا أولاً وقبل كل شيء أصحاب إمبراطورية كبرى تمتد حدودها من طرابلس في الشرق إلى مشارف المحيط الأطلسي من الألبونة إلى ما يعرف اليوم بالسنگال ، وكان على الموحدين أن يظلوا على أهبة الحرب على هذه الحدود المترامية وفي داخل إمبراطوريتهم نفسها ، وكان من المستحيل مادياً أن يستمروا محاربين بنفس القوة في جهات متعددة كهذه ، وكانت الجبهة الأندلسية أضعف جبهاتهم وأحفلها بالخطر ، لأن أهل الأندلس أنفسهم كانت قد أكلتهم الحروب والفتن المتوالية وفقدوا روح الوحدة وحرموا القادة الصالحين في وقت كانوا فيه أحوج ما كانوا إلى قادة قادرين ، لأن ممالك إسبانيا النصرانية كانت تقوى على حسابهم يوماً بعد يوم ، وقد أسعدها الحظ بملوك وأمراء أقوياء ذوي همة ووعى إلى المدف الذي يجمعهم رغم ما كان بينهم من خلافات .

وخلال القرن الهجري السادس نرى بوضوح ممالك إسبانيا النصرانية تنتظم وتقوى وتثبت في أقاليمها وتجمع قواها وتتقدم إلى الجنوب بخطوات ثابتة وعن سياسة واضحة أعانتهم البابوية في رسمها ، وشدت أزرهم بلاد

أوروبية أخرى نهضت واستقرت أمورها قبلهم ، ومن هنا فقد كان الصراع غير متكافئ بوجه من الوجوه .

وقد تماسكت جبهة الأندلس الإسلامي بعد توضيحات كثيرة أيام خلفاء الموحدين الثلاثة الأول ، ثم تداعت على أيام الرابع منهم وهو محمد الناصر ابن أبي يعقوب يوسف المنصور ( ٥٩٥ - ٦١١ / ١١٩٩ - ١٢١٥ ) وظهر هذا التداعي في صورة انهيار سريع بعد معركة العقاب ، وقد كانت قاصمة الظهر لدولة الموحدين في الأندلس والمغرب أيضاً .

كان الناصر يشعر قبل هذه المعركة باستحالة الاستمرار في الدفاع عن دولة مبرامية الأطراف كهذه ينتصب لها أعداء ذوو خطر على كل شبر من حدودها بل في كل ناحية من نواحيها ، فاختار واحداً من خيرة الموحدين وأقامه حاكماً عاماً على كل الجناح الشرقي من إمبراطوريته ، وهو أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص ( سنة ٦٠٣ / ١٢٠٦ - ١٢٠٧ ) . وكان هذا الإجراء في حقيقته تقسيماً للدولة إلى دولتين ، لأن أبا محمد عبد الواحد ابن أبي حفص وخلفاءه لم يلبثوا أن أصبحوا دولة قائمة بنفسها .

ولو أن محمداً الناصر استأنى قبل أن يخوض معركة العقاب لكان من الممكن أن يكون حظّه فيها أحسن ، ولكنه سار إليها وقسمة الإمبراطورية ما زالت في الطريق ، ثم إن فتنة بنى غانية كانت قد أفسدت الجانب الشرقي من الأندلس ، وكان لا بد بعد القضاء عليها من تنظيم وترتيب واستجاء قوى . ولكنه - رغم حسن نيته وإخلاصه للدولة وللإسلام - لم يكن بالقائد العسكري الذي تتطلبه جبهة مهيبه يقف فيها خصم عنيد أضرتّه الرغبة في الانتقام لهزيمة يوم الأرك .

ودخلت في المعركة عوامل أخرى كانت كلها على محمد الناصر ، منها أن رؤساء المقاتلين معه - سواء من الموحدين أو الأندلسيين أو جماعات عرب الهلالية - لم يقدرُوا أهمية المعركة ولم يدر بخلد أحد منهم أن مصير

الأندلس كله كان في الميزان في ذلك اليوم ، فانساقوا مع عصبيات ونوازع شخصية وغير شخصية ، ومنها أن صناعة السلاح والدروع وفن الحرب بصفة عامة كان قد تقدم تقدماً بعيداً في إسبانيا النصرانية نتيجة للاتصال الوثيق مع بقية بلاد غرب أوروبا . ومن هنا دارت على المسلمين هزيمة قاصمة واصطلى أبرياء المقاتلين والمتطوعة بنار حاصدة أكلتهم أكلاً ، وربما كان عدد من استشهد من المسلمين في تلك المعركة أكبر من عدد من استشهد في أي معركة في تاريخ الإسلام كله حتى ليقول صاحب روض القرطاس إن السائر في ريف المغرب بعد ذلك كان يقطع المسافات الطويلة دون أن يرى رجلاً . لأن زهرة الرجال راحت صرعى في ذلك اليوم الأسيف .

وأمثال هذه المعارك تخلف في النفوس آثاراً لا تمحى ، فإن القلائل من الأندلسيين الذين نجوا من السيوف في ذلك اليوم تفرقوا إلى بلادهم وقد استقر في نفوسهم شعور بأن الأمر قد ضاع ولا حيلة في تلافيه ، والأخير يرتجى من الرؤساء والقادة أمام عدو مستأسد متفوق ، أي أن معنوية المناضلين عن الجبهة الإسلامية ضعفت وخامرها الخوف من العدو ، ومن ثم فلا غرابة بعد ذلك أن نجد الفئة القليلة من النصارى تستولى على البلد الإسلامي الكبير دون مشقة بل دون قتال في كثير من الأحيان ، لأن اليأس والخوف ملأ قلوب الناس ، ولم يعد لهم ما يحفظ عليهم الأمل في البقاء إلا التفافهم حول من وُجد في بلادهم من الشيوخ الذين ذكرنا بعضهم .

وفي أيام أبي يعقوب يوسف المستنصر – خليفة الناصر وخامس خلفاء الموحدين – تلاشت بقية الأمل في الموحدين ، فقد نجم لهم بنو مرين وبدأوا معهم صراع المصير في المغرب ، ولم يكن للموحدين مفر من أن يتجرعوا نفس الكأس التي جرعوها هم للمرابطين في مثل هذه الظروف قبل قرابة القرن من الزمان .

وخلال السنوات العشر التي دامها حكم هذا المستنصر تغيرت نفسية أهل البيت الموحدى وأشياخ حركتهم ، فلم يعودوا يتنا متحدا تجمعهم معنوية واحدة وإنما أمراء وأشياخا اقتعد كل منهم قاعدة من قواعد الملك الموحدى أو وظيفة من وظائفه الرئيسية في مراکش وعينه متجهة إلى عرش الخلافة يمني نفسه بها أو يمنيها من حوله ، ويتمنى في نفس الوقت فساد الأمر على من تولى هذا العرش . وقد ظهرت هذه المطامع بصورة خاصة عند بعض من بقى من أولاد أبي يوسف يعقوب المنصور وأبناء عمومته أولاد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن .

وقد ابتلى الأندلس في أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجريين باثنين من أبناء يعقوب المنصور ، هما : أبو محمد عبد الله وكان يتولى مرسية ، وأبو العلا إدريس وكان يتولى قرطبة ؛ وشاركهما في هذا الطمع وأرأى عليهما فيه ابن عمهما عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن الذي عرف أهل بيته بالبياسيين ، وكان يتولى إشبيلية ثم بلنسية ؛ وسار في طريقه اثنان من أبنائه هما أبو زيد عبد الرحمن وقد خلف أباء في بلنسية وشاطبة ودانية وجزيرة شُقر ، وأخوه عبد الله الذي اشتهر بالبياسي وكان يتولى إشبيلية . أى أن أوائك النفر من البيت الموحدى كانوا يتقاسمون ملك ما بقى للإسلام في الأندلس ، ولو أخلصوا وصدقوا واتحدوا لأغنوا في الحفاظ على هذا الباقي ، ولداهم لهم الملك الذي اقتعدوه .

ولكن شيطان الطمع والخلاف غلب عليهم ، فنهض أكبرهم أبو محمد عبد الله بن أبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن وأنكر بيعة الموحدين في مراکش لعم مسن له هو أبو محمد عبد الواحد في ذى الحجة ٦٢٠ / مارس ١٢٢٤ ، ونادى بنفسه خليفة بعد شهرين من ولاية عبد الواحد وتلقب بالعاذل ، وأيده أخوه أبو العلا إدريس صاحب قرطبة وابن عمه عبد الله البياسي صاحب إشبيلية ، وتوقف عن البيعة له ابن عمه أبو زيد عبد الرحمن

ابن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن صاحب بلنسية وما والاها ( وهو أخو عبد الله البياسي ) . وعبر العادل البحر وخلع عمه عبد الواحد واستقر خليفة في مراكش ٦٢٢/١٢٢٥ ، وكان يتوجس خيفة من ناحية ابن عمه أبي عبد الله البياسي ، فأضاف إليه قرطبة استرضاءً له ، ولكنه لم يكن يرضى بأقل من الخلافة ، فها هي إلا شهور حتى خلع طاعة العادل ، وأيس من عزّ الموحدين فانضم إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وسلم له عددا من بلاد المسلمين منها قَبِيْجَاطَة Quesada وباجة Baza ولوشه Loja ، ثم سار بمن معه من القشتاليين ليهاجم أبا العلاء إدريس في إشبيلية ، فثبت له هذا ورده خائبا ( صفر ٦٢٣ / فبراير ١٢٢٦ ) ، فغضب على غير هدى حتى قام عليه أهل قرطبة وقتلوه ، إذ تراءى إلى علمهم أنه خلع الإسلام ودخل في النصرانية .

ولم يطل الأمر للعادل بعد ذلك ، لأن خلافا شديدا نجم بينه وبين رجال دولته وقادته من الموحدين فقبضوا عليه ثم قتلوه بعد ١٤ يوما ( ٦٢٤ / ١٢٢٦ - ١٢٢٧ ) . وفي هذه الأثناء كان أخوه أبو العلاء إدريس قد نادى بنفسه خليفة من إشبيلية ، وتلقب بالمأمون وخاض عمار حروب طويلة مع محمد بن يوسف بن هود الذي كان قد نادى بنفسه أميراً على الأندلس كما سيحيى . ثم صور للمأمون رأيه الفائل ألا معنى للبقاء في الأندلس أو محاولة الحفاظ على ما بقي منه ، فجمع من عنده من جند في إشبيلية ومن كان منهم في قرطبة وجيان وما إليها وعبر البحر إلى المغرب وبويع له بالخلافة في شوال ٦٢٤ / سبتمبر ١٢٢٧ . ولم يتمتع هذا المأمون بالأمان يوما واحداً ، إذ قام عليه المنافسون من كل ناحية وقضى سنوات حكمه القصير ( ٥ سنوات و ٣ أشهر ) في حروب وهروب ومنازعات ووقائع حتى أدال الله منه بابنه المسمى عبد الواحد المتلقب بالرشيد .

والمهم لدينا أن الدولة الموحدية انتهت في الأندلس بتصرف المأمون

هذا ، فلم يبق من أمرائهم فيها إلا أبو زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله ابن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن الذى ذكرناه ، وكان يملك بلنسية وشاطبة وجزيرة شقر ؛ أى معظم شرق الأندلس . أما بقية بلاد الأندلس الباقية ، وحدّها الشمالى مجرى الوادى الكبير ، فقد وقفت مكشوفة لا يدفع عنها أحد ، فتجمع مشايخ كل بلد وذوو الهمة من رجاله وتولوا أمر بلدهم والدفاع عنه قدر الطاقة ، أو اختاروا من يقودهم ، وأظهر أولئك الرؤساء محمد بن يوسف بن هود الجذامى الذى سنتكلم عنه .

وهكذا بدت جبهة الأندلس كلها من مرسية إلى إشبيلية مكشوفة أمام أعداء أقوياء لا يتقصهم الحافز للتقدم والاستيلاء على هذه البلاد الكبيرة التى وقف أهلها والخوف ملء قلوبهم تحت رحمة الأعداء .

وقد سار التقدم النصرانى فى ذلك الحين ، ابتداء من العقد الثالث من القرن السابع الهجرى / العقد الثالث من القرن الثالث عشر الميلادى ، فى ثلاثة تيارات : الأولى وجهته غرب الأندلس وتولاه أمراء البرتغال ، والثانى وجهته حوض الوادى الكبير وتولاه ملوك قشتالة ، والثالث وجهته شرق الأندلس وتولاه ملوك أرغون . وكانت هذه الممالك الثلاث تختلف فيما بينها وقد تقع الحروب بين جيوشها ، ولكنها كانت تقف صفاً واحداً إذا تعلق الأمر بحرب مع المسلمين ، وكانت البابوية تعمل فى جد لصرف ملوكها عن النزاع مع إخوانهم فى الدين وتوجيه أنظارهم نحو الغنائم السهلة التى تنتظرهم إذا ساروا جنوباً .

أضف إلى ذلك أن هذه الممالك الثلاث رزقت منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر إلى منتصف الثالث عشر ملوكا ذوى قدرة وسياسة وتصميم على مواصلة الحرب مع المسلمين ، وطالت إلى جانب ذلك أعمار الكثيرين منهم ، فانفسحت أمامهم الآجال للعمل والتجربة واكتساب الخبرات وتعويض الهزائم إذا وقعت ، ففيا بين سنتى ١٠٧٢ و ١٢١٤ ( ٤٦٥ -

٦١١ هـ) - أي قرابة القرن ونصف - حكم قشتالة ثلاثة ملوك كبار في نسق ، لم تتخلل أيامهم إلا خمس عشرة سنة حكمها الملكة أورآكا بعد ألفونسو السادس ، وهؤلاء الملوك هم ألفونسو السادس والسابع والثامن ، وهذا الأخير حكم وحده ٥٦ سنة (١١٥٨ - ١٢١٤) عاصر خلالها أربعة من خلفاء الموحدين هم يوسف ويعقوب المنصور والناصر والمستنصر ، وفي هذا الحكم الطويل ضاهاه خايمة الأول المعروف بالفتح ملك أرغون ، فقد حكم ٦٣ سنة (١٢١٣ - ١٢٧٦) وفرناندو الثالث ملك قشتالة فقد حكم ٣٥ سنة (١٢١٧ - ١٢٥٢) .

وفرناندو الثالث هذا يكاد أن يكون أشد ملوك إسبانيا النصرانية عزماً في مواصلة الحرب ضد المسلمين ، وهو الذي استولى على قواعد الوادي الكبير الرئيسية : أندوخر Andujer وبياسة Baeza (١٢١٧ / ٦٢٣) وقرطبة (٢٣ شوال ٦٣٣ / ٢٩ يونيو ١٢٣٦) وجيان (٦٤٤ / ١٢٤٦) وقرمونة ، ثم استولى على إشبيلية (٦٤٦ / ١٢٤٨) . فأما قرطبة فقد سقطت على أهون سبيل ، وقاومت إشبيلية مقاومة عنيفة ولكنها قصيرة ، أما جيان فقد أخذت دون أن يجرد سيف من قرابه .

ولم ينجم بين مسلمي الأندلس خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي إلا مغامرون أوتى بعضهم شجاعة ونجدة ، كان كل منهم يعمل منفرداً ويجري في نشاطه على غير هدى ، ولم يسلم واحد منهم مع ذلك من الخصوم والأعداء من إخوانه ، مما ضيع جهودهم وقصر أيامهم ؛ وأكبر هؤلاء جميعاً محمد بن يوسف بن هود الجذامي ومحمد ابن يوسف بن نصر بن الأحمر .

وابن هود هذا - وقد تسمى بسيف الدولة وتلقب بالمتوكل - نموذج من زعماء الأندلسيين في ذلك العصر (سيترجم له ابن الأبار في الحلة) . ظهر وقد نادى المأمون الموحدي بنفسه خليفة فوقت بينهما حروب طويلة ، ثم انسحب المأمون من الميدان فانضم الكثيرون من جند الأندلسيين الذين كانوا يعملون في صفوفه إلى سيف الدولة المتوكل بن هود ، فاستقل هذا

بمصرية وجمع قوة عسكرية طيبة ودعا للخليفة العباسي وأتته من بغداد الخلعة والواء ، فحاز شرق الأندلس كله ، ورهبه النصارى ، وأطلسوا عليه اسم ثافادولا ( سيف الدولة ) وطرد من مرسية أميراً موحدياً كان يدعيها لنفسه هو أبو العباس بن أبي موسى بن عبد المؤمن ، وهزم السيد أبا زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن صاحب بلنسية واضطره إلى الدخول في طاعته ، وأصبح زعيماً لمن بقي من المسلمين في الأندلس . وقد أرخ له ابن الخطيب في « أعمال الأعلام » بأوفى مما فعل ابن الأبار في « الحلة » ، وبهنا من كلامه عنه قوله : « وجرت على ابن هود هزائم شهيرة ووقائع مذكورة ؛ أوقع به السلطان أبو عبد الله ( محمد بن يوسف ) بن نصر ثلاث مرات آخرهن سنة ٦٣٣ أو ٦٣٤ ، وكان اللقاء بينه وبين المأمون إدريس أمير الموحدين بشرق الأندلس سنة ٦٣٥ ، فهزمه المأمون هزيمة كبيرة ، ولأذ منه بمصرية وامتنع بها ، إلا أن المأمون شغله أمر الفتنة الواقعة بمراكش ، فصرف وجهه إليها ، وثاب الأمر لابن هود ، فدخلت في طاعته المرية ، ثم غرناطة ، ثم مالقة . وفي سنة ٦٢٧ تحرك بفضل شهامته في جيوش عظيمة من المسلمين لإصراخ ماردة ، وقد نازها العدو وحاصرها ، ولقي جيش العدو بها وطاغيته ، فلم يتأنّ — زعموا — حتى دفع بنفسه العدو ، ودخل في مصافه ، وفقده الناس لما غاب عنهم ، فلم يرجع إلا وقد انهزموا مدبرين ، وكانت هزيمة شنيعة ، واستولى العدو على مدينة ماردة يومئذ ... »

فهذا رجل تصدى للأمر وأثبت شهامة ونجدة ، ولكن أنداده من المسلمين تصدوا له وواقعه المرة بعد المرة ، ثم خذله جنده ، وكان من الطبيعي لهذا ألا يوفق إلى شيء ذي أثر .

وبينما كان ابن هود يقطع الجزيرة من شرق لغرب كان قائد آخر هو محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر يجمع صفوفه في بلده أرجونة قرب جيان ويستعد لحربه والحلول محله . ظهر ابن الأحمر سنة ٦٢٩ / ١٢٣١ — ١٢٣٢

ثم تقدم وملك جيان سنة ٦٣٠ / ١٢٣٢ - ١٢٣٣ ثم قرطبة ثم إشبيلية ، ثم استقر في غرناطة ( ٦٣٥ / ١٢٣٧ - ١٢٣٨ ) فضاقت الأمور بين الرجلين ووقعت الحرب بينهما وهلك فيها من المسلمين كثيرون . وكان ابن الأحمر سياسياً بعيد النظر ، استبان من أول الأمر أنه لن يستطيع الثبات في جبهة الوادي الكبير ، ولهذا اتجه نحو غرناطة ، وعول على أن يجعلها قاعدة ملكه مكتفياً بالطرف الجنوبي من شبه الجزيرة ، ولهذا حالف ملوك قشتالة وعاونهم وأعترف لهم بالرياسة عليه مما نفر المسلمين منه ، فطرد أهل قرطبة ثم إشبيلية جنده ، فلم يحفل كثيراً وركز همه في إقليم غرناطة . وعلى الرغم مما وقع بين ابن هود وابن الأحمر من حروب فإنه يمكن القول بأنه لو لم يكن سيف الدولة المتوكل بن هود لما استطاع الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر أن ينشئ مملكة غرناطة ، فقد شغل ابن هود القشتاليين وأخافهم خوفاً شديداً ، وحفزهم على موالاته خصمه ابن الأحمر وتأييده ، وفي ظل هذا التأييد قامت مملكة غرناطة ، وأنسا الله في عمرها بعد ذلك قرنين من الزمان .

• • •

## شرق الأندلس

وكان شرق الأندلس يجتاز فترة قلقه مضطربة من تاريخه منذ ذهاب أمر المرابطين وبعث الموحدين ، فقد نجمت فيه سلسلة من أفضاذ القادة والمغامرين أكبرهم أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردانيش ، وكان أبوه في أوليته من قواد المرابطين يعمل في صفوف يحيى بن غانية ، وكان له بلاء عظيم في موقعة أفراغة ، فلما مات بدا لمحمد بن سعد أن يستقل بشيء من شرق الأندلس ، فاستقر في مرسية وحازها من جمادى الأولى ٥٤٢ / أكتوبر ١١٤٧ . وكان فارساً نجداً عظيم البأس ، تمكن بالاتفاق مع أكتاد برشلونة من أن يسود شرق الأندلس كله لقاء إتاوة سنوية ثقيلة قدرها مائة ألف دينار ، كما يقول ابن الخطيب في « أعمال الأعلام » ، وشد أمره بمصاهرة نفر من الثائرين بشرق الأندلس منهم يوسف بن هلال وكان قد

استقل بحصن مُطَرِيش وإبراهيم بن أحمد بن مفرج بن همَّشك الذي انتزى ببعض حصون إقليم مرسية مثل شقوبش وشقورة ، ثم انقلبوا عليه ووقعت بينهم فتن طويلة يقص ابن الأبار في « الحلة » وابن الخطيب في « أعمال الأعلام » وابن عذارى في الجزء الثالث من « البيان المغرب » طرفاً منها .

ولجأ محمد بن سعد في أثناء ذلك إلى النصارى فاعتضد بهم واتخذ لنفسه جنداً منهم وأثقل على رعيته بالضرائب ، فنفر منه الناس ، وتخلى عنه أخوه أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردانيش ودخل في طاعة الموحدين أيام أبي يوسف يعقوب المنصور . ووجد محمد بن سعد نفسه وحيداً دون نصير وقد علت به السن وقاربه الموت ، فكاتب أبا يوسف يعقوب وتخلى له عن مرسية وبقية ما بيده وأرسل أولاده إلى الخليفة الموحدى وأوصاه بهم ، فرق يعقوب المنصور لهذا الصنيع وقرب أبناء محمد بن سعد وأقام كبيرهم أبا القمر هلال بن محمد بن سعد عاملاً على لإشبيلية ، وتزوج ابنة محمد بن سعد تسمى الزرقاء في ربيع الأول ٥٧٠ / أكتوبر ١١٧٤ فحظيت عنده وكان لها أبعد الأثر في بقاء بنى مردانيش في السلطان ، وأقام عمها أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردانيش أميراً على بلنسية وأخاه غانم بن سعد بن مردانيش أميراً على أسطول الموحدين في سبتة . وبعد موت محمد ابن سعد أصبح رأس البيت أخوه أبو الحجاج .

وفي أيام محمد الناصر هبط أمر أبي الحجاج بن سعد بن مردانيش ، ولكنه ظل أميراً على بلنسية حتى سنة ٥٨٢ / ١١٨٦ . وكان له أولاد كثيرون أهمهم أبو الحملات مدافع وأبو المظفر غالب وأبو الحارث سبع وأبو سلطان عزيز وأبو ساكن عامر وأبو محمد طلحة ، وكان كل منهم يتولى حصناً أو ناحية من نواحي بلنسية ومرسية :

وفي سنة ٦٠٧ / ١٢١٠ أقام محمد الناصر أبا عبد الله بن أبي حفص

عمر بن عبد المؤمن واليا على بلنسية ثم خلفه عليها ابنه أبو زيد عبد الرحمن ،  
والمراجع تخلص بين أبي زيد هذا وعم له يحمل نفس الاسم ، ولكن أبا زيد  
العم لم يكن قط أميرا على بلنسية ، إنما كان أميرا على ميورقة سنة ٥٩٩ .  
١٢٠٢ - ١٢٠٣ ثم توفي بعقب ذلك بعد تاريخ طويل في دولة الموحدين .  
أما أبو زيد المراد هنا فهو ابن عبد الله بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ،  
وهو أخو عبد الله البياسي الذي ذكرناه ، وقد نشأ هو وأخوه وبقية  
بيته في بياسة فعرفوا لذلك بالبياسيين ، وكانوا فريقا قليل الإخلاص شديد  
الأناية حريصا على الحياة والملك بأي ثمن .

وقد رأينا ما فعله عبد الله البياسي من حرب المسلمين والانضمام إلى  
القشتاليين ثم الذهاب إليهم جملة ؛ ولم يكن أخوه أبو زيد هذا بأحسن منه ،  
فقد أمسك ناحيته بعون النصارى وأداء الإتاوة لهم ، وبفضلهم استطاع  
التغلب على بني مردانيش ، فاكتفى أكبرهم أبو الحملات مدافع بن  
أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردانيش بحصن أبدّاه ، وقد استشهد في  
بعض المواقع شابا ، فخلفه ابنه أبو جميل زيان بن أبي الحملات وضيق  
على أبي زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله بن أبي حفص عمر في بلنسية ،  
فأيس هذا من المسلمين جملة ، فهو على خلاف مع الموحدين لا يستطيع  
طلب عونهم أو اللجوء إليهم ، والمسلمون في بلنسية كارهون له يترصدون به  
الدوائر ، ففكر في اللجوء إلى أنصاره من النصارى وخاصة خايمة الأول  
صاحب أرغون ، وذهب إليه ليفاوضه في معاونته ، ولكن خايمة لم يجد فيه  
ما يستحق العناء ، وإزاء هذا عرض عليه أبو زيد أن ينتقل إلى بعض حصونه  
ويقيم فيه تابعا له ، وتم الاتفاق على ذلك ، واستقر في حصن شُرب ،  
ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه دخل هناك في النصرانية ، وهو أمر نستبعده ،  
لأن مفارقة الدين في سن مثل هذه أمر غير يسير ، خاصة من أمير موحدى  
مهما كان طبعه ورأينا فيه . واستقر الأمر في بلنسية لأبي جميل زيان  
ابن مردانيش .

وقد كتب ابن الأبار لأبي عبد الله والد أبي زيد عبد الرحمن ، ثم كتب لأبي زيد وخرج معه لملاقة الملك خايمة ، ثم رجع وحده عندما رآه يفضل مباينة دار الإسلام والإقامة في بلاد ملك أرغون . وقد سكت ابن الأبار عن هذه الواقعة سكوتاً غريباً ، فلم يقل شيئاً يذكر لنا هذه النقطة الهامة ، والمهم أنه عاد إلى بلنسية وعمل كاتباً لأبي جميل زيان بعد ذلك .

وكانت بلنسية إلى ذلك الحين أسعد حالا من غيرها من كبريات مدائن الأندلس ، فقد نفعها قيام بنى مردانيش وابن همشك وبنى هود وابن الأحمر في إقليمها أو قريباً منها ، لأن أولئك الرجال أخرجوا سقوطها وصرفوا الغزاة إلى غيرها مما كان أسهل منها ، وأتاحوا لأهلها بضع سنوات من الهدوء والأمان للنسيين ؛ نقول النسيين لأن الوقائع في إقليمها كانت على قدم وساق ، وكان أهلها يخرجون للقاء الأعداء كلما أمكنتهم الفرصة .

وكانت سن ابن الأبار إذ ذاك بعد الثلاثين بقليل ، وكان من شخصيات بلده الظاهرين ، فهو واحد من كبار العلماء ورجال الأدب ، وهو كاتب الرسائل للأمير أبي جميل زيان بن مردانيش ، وكان يلتقى بأصحابه من العلماء وكبار أهل البلد في قصر الإمارة ؛ من أولئك العلماء الذين ارتبط معهم برباءة الصداقة أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة الخزومي وأبو الحجاج يوسف البياسي .

فأما ابن عميرة فقد ولد في بلنسية سنة ٥٨٠ / ١١٨٤ أي أنه كان أكبر من ابن الأبار بن خمس عشرة سنة ، وقد رحل إلى المشرق للدراسة ولقاء الشيوخ ، وعاد إلى بلده ليتولى القضاء في شاطبة ثم في ميورقة حتى سنة ٦٢٧ / ١٢٣٠ إذ حضر تسليم الجزيرة لقوات خايمة الأول ملك أرغون ، وكتب كتاباً عن « كائنة ميورقة » بقيت لنا منه فقرات طويلة في « نفع الطيب » للمقرى ، وقد غادر بلنسية بعد سقوطها سنة ٦٣٦ / ١٢٣٨ ، وتوجه إلى المغرب حيث كتب للرشيد الموحدى وتولى القضاء في بضع نواح ، ثم انتقل إلى إفريقية حيث كتب للمستنصر الحفصي إلى أن

توفى سنة ٦٥٨ / ١٢٦١ أى فى نفس السنة التى توفى فيها ابن الأبار .  
وقد أورد القلقشندى فى « صبح الأعشى » نص رسالة كتبها ابن عميرة  
هذا عن « طاغية الإفرنج » والمراد به هنا خايمه الأول ملك أرغون الذى  
استولى على ميورقة قبل أن يستولى على بلنسية . والغالب أن ابن عميرة اضطر  
للمعمل فى الكتابة للملك خايمه بعد سقوط ميورقة وهو فيها ليحقق دمه ،  
حتى إذا أتت له فرصة الخروج منها والعودة إلى دار الإسلام فعل ،  
والحكاية تبتى رغم ذلك مستغربة مستنكرة من رجل فى مكانة أبى المطرف بن  
عميرة ، والفرق عظيم على أى حال بينه وبين رجل كأبى الربيع سليمان بن سالم .  
وأما أبو الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصارى البياسى فقد ولد  
فى بلنسية فى ربيع الأول سنة ٥٧٣ / ١١٧٧ أى أنه أكبر من ابن الأبار  
بأثنتى عشرة سنة ، وكان أديباً حافظاً اتجه إلى الأدب والتاريخ بصورة  
خاصة ، وهاجر إلى تونس بعد سقوط بلده بلنسية واستقر فى تونس يعلم  
ويؤلف ، وأثرت عنه كتب مثل « الإعلام بالحروب الواقعة فى صدر  
الإسلام » و « الحامسة » وغيرهما ، حتى مات فى ذى الحجة سنة ٦٥٣ /  
يناير ١٢٥٦ :

• • •

### سقوط بلنسية

فى ذلك الحين كان الخطر يقترّب من بلنسية يوماً بعد يوم ، لأن مملكة  
أرغون التى اتحدت مع إمارة قطلونية أيام ملكها پدرو الثانى أصبحت خلال  
النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى من أقوى  
ممالك شبه الجزيرة وأهمها ، لأن عرش أرغون كان يضم - إلى جانب إقليم  
سرقسطة وحوض الإبره - دوقيتى پروفنسة وروسيون فى جنوب فرنسا ،  
وكان ملكها پدرو الثانى قد استولى على طركونة وطرطوشة وأطل على حدود  
إمارة بلنسية : وتوفى پدرو الثانى قتيلاً فى معركة موريت Moret بجنوب فرنسا  
مخلفاً ابنه الوحيد خايمه أو جاقه Jaime فى وصاية أمه مارية د موبلييه ، وكانت